جماليّات أيام الحصار

محمّد دكروب

● **اللّيل.. والقناديل**

بيروت: أيّام الحصار، ١٩٨٢.

ليلة الجنون التدميري المبرمج.. غارات. غارات. قصف بحري. قصف برّي. غارات متواصلة منذ الصباح حتّى هذا الليّل الأسود. ظلمات فوق ظلمات. ليس من ضوء في أيّ مكان سوى البروق الخاطفة المنطلقة مع انفجارات الصواريخ، والحرائق، والقنابل المضيئة الهابطة من السماء...

المدينة تهتزّ من جذورها.

والطائرات الاسرائيلية تعربد فوق البناية التي نسكنها. هكذا كنّا نشعر. لا ملجأ في البناية. القلق يحتدم داخل الرأس. قلق على ابنتيّ الصغيرتيْن: لينا (عشر سنوات) وتانيا (ثماني سنوات)...

أضواء برتقاليّة تدخل من النوافذ. الطفلتان تركضان باتّجاه النافذة. نركض خلفهما، زوجتي وأنا. الطفلتان تتأمّلان السماء مبهورتين. نتأمّلها معهما:

طائرة في الأعالي، وقد ألقت عدّة قنابل مضيئة: قناديل تهبط ببطء، تضيء السماء وأجسام البنايات المظلمة. ومن الأرض تنطلق المدافع المضادّة. القذائف تترك خلفها خطّاً طويلاً منحنياً من الضوء الأحمر. خطوط الضوء المنطلقة من الأرض تتلاقى حول منطقة القناديل الهابطة. المشهد كأنّه ثريّا نورانيّة هائلة معلّقة، أو قبّة شاسعة من أضواء برتقاليّة وخطوط ضوئية حمراء تتلامع وتتوسّط السماء السوداء.

الطفلتان منبهرتان. لم تعد أصوات الانفجارات تعني لهما شيئاً.. تتأمّلان القناديل وخطوط الضوء المتلاقية حولها.. تهتفان معاً بفرح:

ـ ياه! السما قَدّيش حلوة..

انتبهتُ إلى أنّ المشهد بالفعل جميل جدّاً: أضواء مهرجانيّة هائلة الحجم، باهرة الجمال.

وللحظات تشاغلتُ عن أصوات الانفجارات وعن رصدي لمدى بعدها أو قربها من البناية.. نسيتُ هذا كلّه.. بهرتني الأضواء.. دخلتُ في عالم الطفلتين..

لحظات.. وعادت أصوات الانفجارات إلى سمعي. عدتُ إلى الواقع، والقلق على الطفلتين. البناية ترتجف، والمدينة تهتزّ من جذورها.

ولكنّ الأضواء لاتزال تتلامع في تشكيلات متنوّعة باهرة الجمال.

على أنّ هذا الشكل من الجمال لا يرتبط، ضرورةً، بالطاقة التدميريّة الكامنة فيه!.

فهل يكون للحرب ـ في بعض جوانب منها ـ جماليّاتها؟!.

ـ تصير للحرب جماليّاتها، عندما تتحوّل الحرب من مجرّد عدوان إلى احتدامٍ ملحميّ.. عندما تتنامى المجابهة، في مختلف تنويعاتها وأشكالها.

في أيّام الحصار، ابتدع ناس بيروت العاديّون، كما أبدع عديدٌ من المبدعين، جماليّات من كلّ نوع. جماليّات لم تكن في البال، وصارت في الواقع.

ولعلّ من أصفى تجلّيات ذلك الإحساس الجماليّ أنّنا كنّا، وسط الجحيم والعطش والجوع والموت اليومي، سعداء..

كنّا في الوضوح الكامل.. وكنّا نجابه مباشرة، وبوعي عفويّ، وبوضوح غير ملتبس: العدو الواضح، المباشر.

● **الحجارة/التماثيل**

.. وصار إحساس سكّان بيروت بحجارة بيروت وأشيائها أكثر قداسة من الإحساس تجاه العمل الفنّي المنحوت.. كأنّ الحجارة هذه تماثيل آلهة في معبدٍ عريق..

بين غارة وغارة، كان ناس بيروت يخرجون إلى شوارعها، يتلمّسون جراحها الجديدة. . بيروت، الجسد الحيّ الصامد لسكّان صامدين صابرين مقاتلين.

العيون تتطلّع إلى الانهيارات الجديدة: الثقوب في الجدران ثقوب في القلوب. وجراح المنازل والطرقات سكاكين تحفر أثلاماً في الجسد الحيّ. النوافذ التي اندلعت منها نيران الحرائق توقد النيران في الروح.

الوجوه التي لا يعرف بعضها بعضاً تكتشف أنّها تعرف بعضها من زمان. كلّ واحد يقول للآخر: «الحمد الله على السلامة». . ثمّ: «يلّلا يا جار. . تعال ننظّف الدنيا». . ويندفعون لتنظيف الشوارع. . فالزجاج المحطّم المكسّر والمسحون يغطّي الشوارع والأرصفة والطرقات. . زجاج زجاج. وحطام من كلّ نوع. والعيون موجوعة وحزينة وغاضبة. الرفوش والمكانس تعمل. الشوارع تصير نظيفة، الزجاج والحطام يتجمّع أكواماً في الزوايا الجانبيّة.

كأنّ الحرب انتهت، ولا غارات جديدة!. وكأنّ لا صواريخ ستنطلق من البوارج في البحر ومن المدافع في رؤوس الجبال، لتصبّ، مجدّداً، فوق بيروت وفي الشوارع نفسها. .

ناس بيروت يعرفون بوضوح: أنّ الغارات ستُستأنف، والتدمير سيتواصل، والحطام سيملأ الطرقات من جديد. . . ومع هذا فإنّهم يندفعون في تنظيف الشوارع من الحطام، في كلّ مرّة، وباستمرار، وبالحماسة نفسها، وبالعشق نفسه. . بل هو العشق الذي يتزايد مع كلّ تدمير جديد. .

صوفيّون هم سكّان بيروت، أيّام الحصار. مندمجون هم بها. متوحّدون بحجارتها المحترقة. الحجارة/التماثيل. يتأمّلونها بحبٍّ أسطوري، كما المتعبّد لتماثيل الآلهة في معبدٍ عريق، اسمه هذه المرّة: بيروت الحصار.

● كتابات الحصار/ تفاعلٌ يومي بالقارئ

. . فكيف كان الكتّاب/ الشعراء يكتبون أيّام الحصار؟.
ماذا كانت الكتابة تعني لهم، وللنّاس، وللمقاتلين؟

ليس من **كتابة** في المطلق. كلّ **كتابة** تحمل نبض زمانها، وصراعاته أيضاً. وبالإضافة إلى دورها الأعمّ في الزمان، فللكتابة، في حالاتٍ وأوضاعٍ معيّنة، دورها الخاصّ، أو وظيفتها الخاصّة، المحدودة بحدود تلك الحالات والأوضاع.

الكثير من كتابات أيّام الحصار كانت تحتوي الجانبين معاً.

في المقالة التي كتبها **سعدي يوسف** قبل يوم من مغادرته بيروت، مع المقاتلين الفلسطينيّين، قال إنّه لا يستطيع معرفة القيمة الأدبيّة والشعريّة لما كتبه خلال أيّام الحصار، الصعبة والمجيدة، ولكنّه يعتزّ بها «شهادة وذكرى، ومن يدري ـ يقول ـ فلعلّني معتزّ بها شعراً!» ـ (**الطريق**: كانون أوّل ١٩٨٢).

أستطيع أن أقول، مع سعدي، إنّ شعور الاعتزاز هو الشعور الأرسخ والأبقى في أعماق كلّ الكتّاب/الشعراء الذين **قاوموا الحصار**، ولو بمقالةٍ أو قصيدة كتبوها، عن أيّام بيروت الحصار وناسها الرائعين.

أقول: «قاوموا الحصار»، لأنّهم ـ ربّما لأوّل مرّة في حياتهم ـ كانوا يلمسون، مباشرة، الأثر النفسي المباشر لما يكتبونه، في كيفيّة تعامل النّاس مع هذه الكتابات. كانت الكتابة، في تلك الأيّام، أداة رائعة من أهمّ وأعمق أدوات التماسك النفسي، للكاتب وللقارئ معاً، بوجه الحصار والجحيم وجنون التدمير وفقدان نقطة الماء ولقمة الخبز.

وكان الواحد منّا يعرف، يوميّاً، وقْع هذه الكتابات، في نفوس الناس من حوله حيث يسكن، وفي نفوس المقاتلين في مختلف المواقع الأماميّة، حيث كانت الجرائد تصل إلى المقاتلين، مع كلّ صباح، وحتى أيّام القصف.

□**حسين مروّة**: «. . كان الأبطال المقاتلون على خطوط النّار يقرأوننا بين القذيفة والقذيفة، وكان فرح عيونهم وبنادقهم بالكتابة يأتينا بصوت مسموع. . . كانت لأبطال القتال على خطوط النّار آراؤهم واجتهاداتهم، في كلّ ما نكتب، وكانت الكتابة تستوحي بطولاتهم، وتستوحي أيضاً آراءهم واجتهاداتهم عن الكتابة. . . كان عشقنا جميعاً **ترابَ** بيروت وقضيّة الوطن، هو العشق الوحيد المتبادل بين الكتابة وبطولة المقاتلين في خطوط **النار**» ـ (**الطريق**: حزيران ١٩٨٣).

ولعلّها من الحالات النادرة، في تاريخ كلّ كاتب، أن يعيش حالة التوحُّد هذه بالقرّاء؛ أن يعيش، مباشرة، هذا التفاعل الحيّ، الخصب، الملموس، بالقارئ ـ ليس بالمفهوم العام للقارئ، بل بقرّاء معيّنين، يعرفهم، يعيش معهم، أو يعرف، ربّما في اليوم نفسه، أنّ مقالته قد وصلت بالضبط إلى حيث أراد لها أن تصل، وأنّ حالات جديدة وأحداثاً وصوراً تستدعيه أن يكتبها، يقاوم بها الحصار، يقاومه فعلاً.

ولعلّ آخر ما يفكّر به الكاتب والشاعر، في هذه الحالة، أن يسعى في كتابته لبلوغ ما يُقال له «أدبيّة الأدب» أو «شعريّة الشعر»!. . إنّه فقط يكتب ـ أي يعيش، يقاوم، يغوص في أعماق

ما يجري، ينغمر في لجج النار. . ولتذهب «أدبيّة الأدب» و«شعريّة الشعر» إلى الجحيم! . . فلو فكّر الكاتب لحظة واحدة، وهو وسط النّار، بهذا المفهوم النخبوي، لما استطاع أن يكتب حرفاً واحداً. . لما استطاع أن يتماسك، ويقاوم، ويعيش إحدى أندر حالات الشعور بالتوحُّد بالقارئ، بالآخر، بالمدينة، بالمكان، بالحركة الفعليّة الحقيقيّة للتاريخ.

هنا ـ هنا بالتحديد ـ مصدر الاعتزاز الذي أشار إليه «سعدي»، والذي كان يعيشه كلّ الذين كتبوا، داخل الحصار، لبيروت الحصار، وللمقاتلين.

«**لو لم أكتب أيّام الحصار لمتُّ قهراً**» ـ يقول حسين مروّة في حديث أُجري معه، بعد الحصار. كانت الكتابة هي الحياة نفسها للكاتب، بما هي مقاومة للموت. . وكنّا ـ فعلاً ـ سعداء إذْ نكتب.

. . وصرنا نكتب في أيّ مكان، وفي أيّ زمان. .

● **الكتابة. . خارج «طقوسها». .**

في البداية كنّا نكتب، والقصف يهزّ الشوارع والبيوت، ولكن تحت نور الكهرباء. . ثمّ ساد الظلام كلّياً. قطعوا عنّا الكهرباء. فصرنا نكتب في ضوء قناديل الغاز. . ثمّ اختفت قناني الغاز فصرنا نكتب في ضوء الشموع.

أحياناً كنّا نكتب ونحن جلوس خلف طاولة، كأيّ كاتب في أيام عاديّة. . ثمّ صرنا نكتب حيث نكون: تحت أدراج البنايات، حيث نحتمي من القصف. . وفي الملاجئ، أو في المستشفيات الميدانيّة، وأحياناً في المواقع الأماميّة نفسها. ونكتب في **المطبعة** حيث هدير الآلة الطابعة الضخمة يتشابك مع هدير الطائرات المعربدة وانفجارات الصواريخ، حولنا وحوالينا وفوق رؤوس البنايات. .

. . ونسينا كلّ «الطقوس» التي اعتاد الواحد منّا أن يمارسها ليدخل في . . «حالة الكتابة»!.

□ **حسين مروّة**: «. . أكتب في لحظة يعربد فيها الخطر المباشر فوق رأسي. . إذْ الهمجيّة الصهيونيّة تعربد في السماء، وفي الأرض، وفي البحر» ـ (**النداء**: ١٣ آب ١٩٨٢).

هذه الصورة لا تنحصر بذلك اليوم من آب، بل هي تكاد أن تكون صورة كلّ يوم من أيّام الحصار: القذائف الأميركو ـ إسرائيلية تنهال على بيروت وسكّانها، وعلى المخيّمات الفلسطينيّة، وحتّى على مقابر الشهداء. . من الطائرات في السماء، ومن البوارج في البحر، ومن المدافع التي نصبها الإسرائيليُّون فوق الجبال والتلال المحيطة ببيروت. .

والموت يندفع، عاصفاً، في شوارع بيروت وفوقها ومن حولها. وبيروت الرائعة تقاتل.

كلٌّ يقاتل في ميدانه، وبالسلاح الذي يستطيع استخدامه.

. . **وحسين مروّة** يكتب، وسط هذا الجحيم. . وكذلك **سعدي يوسف**، في الطابق الثامن من بناية عالية جدّاً في رأس بيروت، يتأمّل نيران الصواريخ المنطلقة من البوارج الحربيّة الرابضة تجاه شرفته بالذات. . ويكتب الشعر، يرسم صورة «مريم» التي تأتي إليه، في الحلم وفي الواقع، تحمل الشعر وأخبار المقاتلين. . **وأدونيس** ترك «طقوسه» كلّها، وصار يكتب، بطواعية، في كلّ مكان، وحتّى تحت ضوء شمعة في ظلام الملجأ. . والشّاعر **جليل حيدر** يكتب نثراً، بين معركة ومعركة، حيث هو في أحد مواقع القتال الأماميّة. .

. . **وحبيب صادق**. . **عصام محفوظ**. . **غالب هلسا**. . **محمود درويش**. . **معين بسيسو**. . ومختلف الذين كانت لهم «طقوس» في الكتابة فغادروها. . واكتشفوا أنّهم يستطيعون أن يكتبوا خارج «الطقوس» وحتّى ضدّها. . وتواجدت «حالات الكتابة» في كلّ آن وكلّ مكان:

□ «كنّا نكتب تحت القصف فعلاً ـ قال **سعدي يوسف** ـ في مبانٍ بلا ملاجئ، وعلى ضوء الشموع، عيوننا محتقنة من السهر، وأيدينا ترتعش من رَهَقٍ ونَصَب، وشفاهنا يحرقها الظمأ، ورائحة أجسادنا عرق وطين» ـ (**الطريق**: كانون الأوّل ١٩٨٢).

على أنّ **حسين مروّة** عاد إلى واحد من «طقوسه» النجفيّة في الكتابة: رأيته متربّعاً في جانب محدّد من قاعة واسعة في البيت المقيم فيه. وعلى ركبتيه عدّة أوراق، مسنودة إلى كتاب، والقلم بيده يخطّ على الأوراق. . هكذا كانوا يكتبون دروسهم في النجف: متربّعين.

الفرق: أنّ حسين مروّة، أيّام الحصار، كان **يمتشق** القلم.

ليس مجازاً ما أقول بل هو الواقع: فالقلم هو أداة حسين مروّة الرئيسيّة في المقاومة، وفي توصيل المعرفة، وفي بعث الفرح. . . وصار القلم بيد حسين مروّة، أيّام الحصار، سلاحاً حقيقيّاً. فهو إذْ يدخل في الكتابة، يدخل في حالة القتال. يشعر، بالعمق وبالأعصاب وبنبض العقل أيضاً، أنّه يقاتل. ويرى، في التصوّر وفي الحقيقة، أنّه يصارع العدوّ. . بل أقول، من موقع معرفتي اليقينيّة بحسين مروّة: إنّه، وهو في حومة الكتابة، وفي عمق تلك الحالة الصوفيّة من التوحُّد بموضوعه، يشعر، بالفعل وبالغريزة وبالعقل، أنّ الانتصار في المعركة ضدّ العدوّ متوقّف، أيضاً، على ما ينجزه من كتابة في ذلك اليوم بالذات.

كان يذهب إلى الكتابة بشعور الذاهب إلى الخطوط الأماميّة. .

لعلّه، انطلاقاً من هذا الشعور، جعل عنوان زاويته اليوميّة في «النداء»: «الوطن المقاتل».

ولعلّ كتابات حسين مروّة اليوميّة عن بيروت الحصار ـ خلال أيّام الحصار ـ كانت هي الأقوى فاعليّة، والأشدّ التصاقاً بناس بيروت وبالمقاتلين وبالمدافعين عنها، والأكثر وصولاً إلى هؤلاء الناس، وهي الصوت التحريضي الصادق الواثق بالانتصار، الصوت الذي لم يغب عن ناس بيروت طوال أيّام ذلك الجحيم المتفجّر بكبرياء الصمود ومجد المقاومة.

«الطقس» الوحيد الذي مارسه الكتّاب والشعراء هو: **الكتابة**.. الكتابة في قلب الحدث، ومن خلاله، وعنه دون أيّ خوف من هذه الاستجابة ـ الآنيّة ـ للحدث.

● **سعدي.. في ليل «الحمرا»..**

.. وكان من «طقس» **سعدي يوسف**، عندما يكتب شيئاً ما، أن يحمل ما يكتبه ويخرج ليوصله إلى جريدة **النداء**، حيث كان ينشر، بشكل يومي تقريباً، مقالة أو قصيدة وأحياناً مطوّلة شعريّة دفعة واحدة..

ويكون الوقت ليلاً. والظلام كامل شامل. والشقّة التي يسكن فيها سعدي، كانت في منطقة رأس بيروت، قرب البحر. أمّا مكان الجريدة فهو في منطقة «الزيدانيّة». المسافة طويلة جدّاً.. شوارع وأزقّة وأحياء وطُرُقات فرعيّة كثيرة. يسير سعدي في الظلام. يستهدي أحياناً بمصباح بطّارية دقيق كقلم الحبر، هذا عندما تتوفّر لسعدي البطّارية!.. «سهلٌ أن يغادر المرء شقّته، في بداية الليل، لكنّ الصعوبة ـ يقول سعدي ـ هي في العودة، إذْ تشتبك المسالك والدروب والمنعطفات، وتضيع الشواخص والثوابت في العتمة العجيبة، فلا تدري أيّ مدخل تدخل، وأيّ سبيل تسلك، وإلى أيّ وجهة يقودك هذا الدرب أو ذاك» ـ (**النداء**: ١٩٨٢/٦/٢١).

وفي النهارات، كان سعدي يستفيد من فترات الهدوء النادرة، «فيخطف رجله» إلى أكثر من مكان: إلى بعض المواقع الأماميّة، حيث فصائل من «القوّات المشتركة» الفلسطينيّة ـ اللبنانيّة، وحيث كان يلتقي أيضاً ببعض المناضلين من بلدان عربيّة أخرى.. في هذه المواقع كان سعدي يتزوّد بما لا يتيح له البقاء في شقّته التزوّد به.. ويلمس، على أرض الواقع العملي، كيف تستطيع هذه البيروت العربيّة الرائعة الصمودَ أيّاماً وأسابيع وشهوراً طويلة مريرة ومجيدة داخل أشرس حصار وأشرس قصف وأكثفه في تاريخ الحروب الحديثة. وهنا وهناك يلتقي سعدي بعدد من الكتّاب والشعراء العرب، في المواقع، في محطّة الإذاعة الفلسطينيّة، في مقرّ جريدة «المعركة» التي صدرت خلال أيّام الحصار، وفي «السفير» و«النداء».. ويحنّ إلى منطقة «الفاكهاني» ـ حيث كانت مقرّات فصائل المقاومة الفلسطينيّة ـ فيتسلّل إلى هناك.. وفي مختلف هذه الأمكنة كان سعدي يلتقي بالكثيرين (**معين بسيسو**.. **محمود درويش**.. **غالب هلسا**).. وبالأخصّ الشاعر العراقي **جليل حيدر** الذي حمل السلاح وشارك في المقاومة في المواقع الأماميّة. وقد رسمه سعدي في مقطوعة نثريّة جميلة بعنوان «موقع متقدّم»: «كان فرِحاً باختياره، فرِحاً بالانسجام الذي حقّقه بين فكره وفعله.. سلاحه بيده، ورفاقه من حوله، وهو يؤدّي واجباته بدقّة قد لا تتوافر لدى العديد من زملاء حرفته، وهو الشاعر» ـ (**النداء**: ٢٣ حزيران ١٩٨٢).

وبين الغارة والغارة يتنقّل سعدي من مكان إلى مكان، عائداً إلى شقّته، في أعالي رأس بيروت، يكتب ما ألزم نفسه بكتابته، يوميّاً، ثمّ يغادر ليعاود مسيرته الليليّة، عبر شارع الحمراء، وسائر الدروب والمسالك، باتجاه جريدة «النداء».

ويقول سعدي (الذي يشتغل، عادة، على قصائده بهدوء، وحرفة، ومدى طويل، كما الصائغ الفنّان الطويل البال..) إنّه كتب خلال أشهر الحصار أكثر ممّا يكتبه في عام كامل، شعراً ونثراً ومنمنمات نثريّة مشغولة.. ويتساءل: «لستُ أدري كيف استطعتُ أن أفعل هذا. وكيف احتفظت بالعصب الهادئ وسط الجحيم؟. وقد أخجل الآن حين أقول إنّني **كنت سعيداً**. لكنّها الحقيقة. كنت سعيداً فعلاً. سعيداً بأن أبرّر حياتي وكلماتي. سعيداً بأن أقف وقفة واضحة مع مُثُلٍ نظيفة في وقت امتحانٍ قاسٍ» ـ (**السفير**: ١٩٨٢/٨/١٥).

لم يخرج سعدي من بيروت المحاصرة إلّا مع آخر دفعة من المقاتلين الفلسطينيّين، على ظهر السفينة الأخيرة، وكان اسمها «شمس المتوسِّط».. حمل سعدي في محفظته كتاباته البيروتيّة، التي كانت، في الحصار، زاداً يوميّاً للمقاتلين وللصامدين، وستصير جزءاً عزيزاً، وجميلاً، من الثقافة العربيّة التي إذ هي تحترم نفسها وتدافع عن الإنسان وعن الوطن/الثورة، تحترم الفن أيضاً، وتضيف إليه.

فهل كان سعدي، في ليل «شمس المتوسِّط» يستشرف أفقاً جديداً أم كان يستعيد بعض ما عاشه وما كتبه أيّام الحصار؟.

ـ «ها نحن، مريم، نرسم الطرقات في الليل الملبّدِ
نرصد الطلقاتَ تتبعنا
ونقفز مثل عصفورين مذعورين بين قذيفةٍ وقذيفةٍ
ها نحن، مريمُ، نهبط الدرجات نحو الملجأ الليلي،

نحصي الطائراتِ مغيرةً
ونقول: آمنّا. .
ونمشي، خلسة، للبحرِ
نجلس خلف أكياس الترابِ
ونرقب الأمواج تَهدرُ، والشبابَ مقاتلينَ. . .
ثيابهم مخضرّةٌ كالصخر عند شواطئ المتوسِّطِ
انتظري قليلاً، كي نقول لهم: سلاماً
كي نباركَ بالدموع سلاحَهم
كي نمسحَ الخصلات بالماء القليلِ
ونمضغ الخبز المجفّف صامتين». (بيروت: ٨٢/٧/٢٥)

● أدونيس والكتابة في قلب الحدث

. . وهل تخلّى **أدونيس** عن «طقوسه» في الكتابة أيّام الحصار؟

أدونيس ظلّ في بيروت المحاصرة. عانى، مع عشرات الآلاف من سكّانها، أهوال الحصار والخوف والتدمير وتوالي الانفجارات ليل نهار.

وعندما استُهدفت منطقة الرملة البيضاء والأونسكو (حيث بيت أدونيس) بالكميّة العظمى والفضلى من صواريخ البوارج البحريّة، وقذائف الطائرات، قلقنا على **أدونيس** وعلى **خالدة**. عرفنا، فيما بعد، أنّهما صارا في مكان «أكثر أمناً». . ثمّ عرفنا أنّ قذيفة أصابت أحد طوابق هذا البناء نفسه الذي انتقل إليه أدونيس، ولكنّ البناء «يتمتّع» بملجأ. .

على أنّ أدونيس قلق جدّاً على بيته في منطقة الأونسكو. ومَنْ يعرف بيت أدونيس يفهم سرّ قلقه: بيتٌ يزهو بلوحات الكثير من الفنّانين العرب، وبالمنحوتات، وبمكتبة كوّنها أدونيس بجهد الأيّام ودقّة الاختيار فصارت هي جزءاً من تكوينه الثقافي. وفي البيت أوراق ومسوّدات وكتابات جديدة ورسائل تحتوي أسرار التاريخ الحميم الذي لم يُكتب بعد لحركة الشعر العربي الحديث ـ فكيف لا يتأجّج أدونيس قلقاً على بيته، ويخاف عليه، كما على نفسه، من نيران الحرب؟.

ـ «في زاوية من بيتنا، أحتفظُ منكِ بشظايا تتغلغل في لوحات أصدقائي، في كتبي وأشيائي الحميمة، ولا أزال أرى دماء الكتب، وأسمع أنين اللوحات، وألمس في دفاتري جراحاً لا تلتئم.

وليس بيتنا إلّا سطراً في كتاب المدينة» ـ (أدونيس، ١٩٨٤).

واستطاع أدونيس، في أيّام الحصار وجحيم القصف، أن يكتب، وأن ينوّع كتاباته.

هذه المرّة، كتب أدونيس الحدث وهو في قلب الحدث نفسه. فلم يأخذ، أو يُؤخذ، بذلك القول «النقدي» التقليدي بأنّ على الشاعر أن يبتعد زمنيّاً عن الحدث ليأتي قوله فنيّاً وناضجاً. . وهو لم يخف أن يتّسم شعره بالمباشرة ولهجة الشعارات الآنيّة، بل هو استجاب لوقائع الهول والمجابهة في الخارج وللغضب الإنساني والغليان في الداخل. . فهذه الأحداث والتحوّلات والامتحان الإنساني، تحمل بذاتها جوهرها التاريخي وصفتها النموذجيّة حيث تتجابه القذائف والمقاومة، الموت اليومي والشوق العارم إلى استمرار الوجود، وتمتزج المأساة بالملحمة.

المهمّ هنا هو: طبيعة الاستجابة وقدرات الشاعر، ومدى الذهاب إلى الأبعد والأعمق.

وظلّ أدونيس ـ في استجابته الآنيّة تلك ـ ذلك الشاعر الشاعر، الذي لا تذهب قصائده عن الحدث الآني، مع ذهاب هذا الحدث.

[فيما بعد، أصدر أدونيس مجموعة وضع لها عنوان **كتاب الحصار** ـ دار الآداب، ١٩٨٥ ـ تضمّ كتابات من نتاج ٨٢ و٨٤، أيّام الحصار، والمجابهة].

لم ينحصر أدونيس ـ هنا ـ ضمن شكلٍ واحد من الكتابة، بل استخدم مختلف الأشكال: من النثر الفنّي، إلى الشعر المكتوب على شكل النثر بدون أوزان تلتزم بقوافٍ، إلى الشعر المرسل، إلى الأشعار الموزونة، والمقاطع التي تستخدم موسيقى القافية. . ومن المقطوعات القصيرة الخاطفة، إلى القصائد، إلى المطوّلات الشعريّة. .

في هذه الكتابات تأمّلات في ظلام الملاجئ، وأضواء القذائف، وبصيص الشمعة، وحالات الناس في قلب الهول وانتظار المجهول.

ـ «إذن، نحن الآن نجلس في الملجأ. كلّا، لا نجلس ـ بل نتموّج. ثمّة ما يزعزع تحتنا الاسمنت وأركانه. واللّحظات التي كنّا نشعر فيها أنّ المبنى كلّه يكاد أن يُزلزل من شدّة القصف، كانت من اللّحظات التي لا تُقال، لأنّك إذ تعيشها للمرّة الأولى فأنت تعيشها حتّى الموت. وبالقول، أنت تحفظ ما يُنسى، ولا تكرّر ما يُعاش» ـ (ص ١٠٥).

تنويعات أدونيس عن الملجأ والتأمّلات في سواده، تذهب بك إلى الأبعد والأعمق والأكثر اتّساعاً في الفضاء، وينهض الجمالي من قلب الجحيم وبشاعات التدمير والموت اليومي.

وفي الملاجئ يستضيء الناس بالشموع.

وبين ضوء الشمعة وأدونيس حوار وتداعيات، رغبات وهواجس وأفكار. ولكن ضوء الشمعة وقت السلم والتأمّل الهادئ غيره وقت

الحرب والقلق المحتدم. وفي ضوء الشمعة وعنها، ينسج أدونيس مطوّلة، تتبادل فيها الشموع أدوارها. فإذا كان التأمّل في ضوء الشمعة أوقات السلم يسمح للشاعر أن يدخل إلى قلب الأشياء، فإنّ لضوء الشمعة في ظلام الملجأ أيّام القصف ـ بالإضافة إلى ذلك الدور ـ أدواراً أخرى:

● «.. كنت أحتضن ظلّ الشمعة النحيل، وأوشوشه بعض أسراري. ثمّ ألتفت نحو المتوسِّط مصغياً إليه يهدر غير بعيد عن أجسادنا شبه الجامدة من الحيرة والرعب، أو من الموت الذي قد يصعقنا بين هنيهة وهنيهة، ألتفت وأشاركه ـ هو الذي ابتكر ضوء العالم ـ نشيجه المتموّج في محيط الظلام» ـ (ص: ٤٦)

«.. وإنّ ذلك الفلاّح الفرعوني الذي كان يكتب أوهامه وأحلامه على أوراق البرديّ، في ضوء شمعة نحيلة، أو ذلك البحّار الفينيقي الذي كان يعيش صديقاً للموج وللشواطئ، أكثر غنى وعمقاً، في حساسيّته الإنسانيّة وتطلّعاته، من هذا الإنسان الذي يفخر، اليوم، بأنّه يمتطي الأشباح الآليّة ويهدم، في لحظات، مدن البشر وقراهم وأكواخهم..» ـ (ص ٥٥).

ويوغل أدونيس، مع ضوء الشمعة وظلام الملجأ، إلى الأقاليم العميقة في التاريخ البشري، وفي النفس الإنسانيّة.. ويذهب إلى البعيد. ثمّ يعود إلى «ضوء الداخل القريب ـ في تلك الغرفة السفلى من المبنى، التي سمّيناها ملجأ».. يعود إلى الواقع المتفجّر بالصواريخ والموت اليومي.. يكتب الواقع ويكتب الرؤى، ولا يسأل عن «مستقبل» هذه الكتابة، ولا عن كميّة الخلود فيها وإمكانية الذهاب في الزمان الآتي... ما كان يهمّه ـ ويهمّ كثيرين من الكتّاب والشعراء أيّام الحصار ـ هو الكتابة نفسها، فعل الكتابة، وفاعليتها، في زمانها.. وربّما في يومها بالذات.

● **وجوه مضيئة/لحظات مضيئة**

وكان صوت **عصام محفوظ**، خلال أيّام الحصار، يرتفع بين حين وحين، معلناً التشبّث بالبقاء في بيروت، والتشبّث بالكتابة؛ ومعلناً أنّه لو ظلّ وحده في البناية حيث يسكن لظلّ يشعر أنّه **هو الوطن**، الوطن الذي لن يترك بيروت:

ـ «.. ها قد بدأ النصف الثاني من الشهر الثاني من الحصار، وأنت تطالع كلّ يوم صور الدمار... وفجر كلّ يوم إذْ تكتشف أنّ سكان الحيّ قد تناقصوا طلباً «للأمان» كنت تشعر بغصّة.. لم تكن تفاجأ أنّ الغالبيّة المغادرة هي من الطبقة الميسورة، فالغنيّ «وطنه ماله»... لكنّك في المقابل كنتَ تفاجأ أنّه كلّما قلّ عدد الذين يحيطون بك، ازداد التعاطف الإنساني مع من يبقى في جوارك، حتّى تظنّ، في لحظة الصفاء القصوى، أنّه، لو لم يبق في الحيّ سواك، **فإنّ الوطن سيكون أنت، سيكون على مقاسك**.. لكم كان يريحك هذا الشعور: **أن تكون أنت الوطن**، وليس المسؤولون عنك، وهم الموظّفون، كباراً وصغاراً، لدى الدول الصديقة والعدوّة.. لكم كان يريحك شعورك أنّه ليس ثمّة من خطر سوى خطر القتل. أمّا الموت فيصير مستحيلاً. وهل يموت الوطن؟

إنّ لك في مأساة الشعب المستجير بأرض وطنك مثلاً: كلّما ضاق به الحصار، ازداد صلابة» ـ (**النهار**: ١٨/٧/١٩٨٢).

عصام محفوظ، مثلنا جميعاً، كان يعاني لحظات ضعف أو خوف، يعالجها بانتفاضة تعيد الصفاء إلى الكيان الذي أرهقته شراسة القصف وقسوة الحصار. وفي **الكتابة**، يصل إلى حالات الصفاء القصوى.

فكان صوت عصام محفوظ، للكثيرين، مثل وخز الضمير.

● ... وكأنّ **محمد شومان**، الكاتب العالم، قد استجاب لكلمات عصام محفوظ، دون أن يقرأها.. فاقتحم أسوار الحصار، ودخل إلى بيروت، لينضمّ إلى الوطن.

كان محمد شومان خارج الأسوار، في سفرٍ بعيد. وإذْ عاد، مفعماً بعشق بيروت الوطن، مارس اقتحام الخطر ومارس الحيلة، ونفذ من الأسوار، وصار في قلب بيروت، داخل الحصار، وتنفّس بكلّ رئتيه وروحه:

ـ «.. فأنتَ لا تعرف طعم الحرّيّة، ولا تحسّ نشوتها ـ كأحلى وألذّ ما تكون النشوات ـ تروح وتجيء بتهويمات حميمة في صدرك الواسع، وتختزن نصلها في أعماق خلاياك، إلاّ حينما تدخل من أبواب المدينة المحاصَرة... لن تنعم بنشوة الحريّة هذه إلاّ وسط هذا الحصار، بل إنّك لن تدرك معنى كيف يمكن اختزان النصل في الأعماق إلاّ عندما تنغرس في هذا الحصار القدسيّ، وتنزرع فيه وتنغمس به... والنفاق، كلّ النفاق، أن يجري حديث ما عن الحرّيّة خارج أسوار بيروت الآلهة الجميلة، الممتلئة حبّاً وخشوعاً وتصوّفاً» ـ (**النداء**: ٢١/٧/١٩٨٢).

● وكان **حبيب صادق** يتنقّل، في بيروت المحاصَرة، من مكان إلى مكان، ولا يهدأ في مكان... أعماقه دائماً تغلي، وجسمه ينشط، ولكن بهدوء وإصرار.. يمسح على وجه بيروت المرهَق والجميل، بيده المنذّاة بعبير الجنوب.. ويكتب عن «صخب الزلزال الهائج» والحمم المنصبّة فوق بيروت النّاس والبنايات والشوارع.. ثمّ يكتب

عن لحظات انطلاقة بيروت وسكّانها في الفترات النادرة والمتباعدة لوقف إطلاق النّار، بين عاصفة جحيميّة وأخرى:

«.. ومثل طفلٍ طروب قفز إلى فناء البيت. وقف، ثمّة، مشدوهاً. ترى أيّة معجزة تتحقّق يوميّاً على أرض بيروت المتكبّرة!!.. هنا فريق من الصبية يدور في حركة سريعة ولكنّها منضبطة. فهذا صبيّ يجرف ما تساقط من شظايا الزجاج ومزق الباطون. وذاك آخر يعبّئ هذه الأشياء في صندوق كرتونيّ. وذلك صبي ثالث يكنّس الساحة الضيّقة وامتداد الشارع المجاور. وإلى جانب هؤلاء صبية آخرون يأخذون مكانهم في العمل تباعاً وعلى نحو منسّق. وهناك نسوة يهرعن إلى حيث يتدفّق الماء من بئر ارتوازيّة في الجوار وبأيديهم أوعية فارغة وقوارير بلاستيكيّة. أمّا الرجال فمنهم من يسرع لمعالجة الأبواب والنوافذ المخلّعة أو المرميّة بعيداً. ومنهم من يتراكض لإطفاء نار ما زالت تشبّ في سيارتين متوقّفتيْن في الجهة المقابلة، ومنهم...

.. لقد رأى نفسه كالشاهد فقط، فاستنكر هذه الحال يقع فيها ويستسلم إليها واندفع، فوراً، إلى حيث حركة الحياة وألقى بنفسه في لجّتها الباهرة ساعداً متواضعاً في غابة السواعد الشامخة التي ما توانت، لحظة واحدة، عن صناعة الصمود ودفع مهانة الاستسلام عن عاصمة الوطن» ـ (النداء: ١٩٨٢/٨/١١).

● ... وذات ليلة، ولسبب ما، تواجدتُ في جريدة «السفير».. ولسببٍ ما، رأيتُ أن أقصد قاعة تحرير الصفحة الثقافيّة، وأنا أعرف أن لا أحد هناك، ولكنّه الفضول!.. وأدخل القاعة: أبداً لم تكن فارغة.. كانت هناك، خلف جهاز الراديو، **كاتيا سرور**، وحدها، تستمع وتكتب... وحدها في الغرفة الواسعة جدّاً.. وحدها ـ هي المرأة الصغيرة ـ تملأ الغرفة الواسعة جدّاً...

هذه الصورة لا تبرح الذاكرة، ولا القلب.

وأذكر أنّني اقتربت منها، فرحاً بها.. وأنّني سألتها:

ـ ... واليوم، ماذا تكتبين لنا يا كاتيا؟

ـ رسالة إلى واشنطن.. فقد أذاعت الأخبار الآن أنّ الرئيس الحسّاس رونالد ريغان «صُدم» من كثافة القصف الاسرائيلي على بيروت.. أي والله «صُدم».. هل تفهمني؟..

وممّا كتبته كاتيا، في ذلك الليل القاصف:

ـ «هل يفهمني الرئيس الأميركي لو قلتُ إنّني لم أفهم (صدمته)؟!. هل يفهمني لو قُلت أن لا شيء يفاجئ امرأة في بيروت الحصار، لا الهجوم ولا الاحتلال ولا القصف العنيف!.. فقط: الأمر محزن.. محزن أن يكون الوطن حصاة صغيرة إلى هذا الحدّ، وأقدامكم ثقيلة إلى هذا الحدّ. أن يكون الوطن صبيّة جميلة إلى هذا الحدّ، وموتكم الآتي إلينا رديئاً إلى هذا الحدّ؟..

تقول امرأة صغيرة في بيروت، جائعة قليلاً، عطشى قليلاً، خائفة قليلاً: يكثر القصف العنيف..

ويصير بوسعي أن أحبّ الحجر، حبّة التراب، شيئاً ملتبساً وينأى وأراه وطني...

لكنّي لا أعتقد أن الرؤساء يفهمون (السفير: ١٩٨٢/٨/٥).

.. وكلّما التقيتُ كاتيا، يورقُ المشهد في ذاكرتي: الغرفة الواسعة.. جهاز الراديو.. ووجه كاتيا، الأسمر الأسمر، يضيء المكان.

● .. وصفحة «النداء» الثقافيّة اليوميّة، غادرت، تلك الأيام، «طقوسها» الصعبة: نسيت الصفحة أنّ جهازاً من المحرّرين كان، قبل الغزو والحصار، يناضل نفسه، لكتابة مواد للصفحة واستكتاب آخرين!.

صارت صفحة «النداء» الثقافيّة تُكتب بدون محرّرين، بدون تخطيط، بدون ركض لتغطية هذا الحدث الثقافي أو ذاك: يأتي المساء، فتتجمّع القصائد والقصص والمقالات، يحملها كتّابها أنفسهم، ويأتون حيث تُصفّ الجريدة، يأتون وسط الظلام وتحت القصف، يجلسون إلى الحديث والسؤال عن خفايا الأحوال وخباياها.. وغالباً ما ينام بعضهم على كرسي في المطبعة أو فوق مواعين الورق، وأحياناً «يتبرجزون» عندما يعثر الواحد منهم على مكان فوق واحدٍ من تلك التخوت الحديديّة الرفيعة، التي صُنعت ـ ربّما ـ لينام فوقها نصف واحد، لفرط ما هي رفيعة!..

وأشهد: أنّ أهمّ فترة ازدهار شهدتها صفحة «النداء» الثقافيّة في مدى الأعوام الأخيرة، هي بالتحديد، فترة أيّام الحصار، الممتدّة من أواسط حزيران حتّى أواخر آب ١٩٨٢، وبدون محرّر ثقافي خاص مسؤول..

● الغداء العلني.. على رأس السطح

.. وكنّا قد نسينا في الحصار أشكال الخضار!. ونسينا أنّ من أهمّ صفات لبنان أنّه بلد الفواكه، الأجمل شكلاً والأطيب طعماً والأضوَع رائحة.. كما كدنا ننسى الماء النظيف، ونسينا الشكل الطبيعي للخبز الطري الجميل.. وكانت الأكلات اللبنانيّة البيروتيّة المطبوخة قد دخلت، من زمان، في عالم الأحلام المستحيلة!..

.. وقالت لنا «حياة»، ذات نهار: أنتم مدعوّون عندي اليوم على الغداء..

وصدّقناها.. وذهبنا، ظهراً، إلى باب الدار(**حبيب صادق، ومسعود ضاهر، ومحمد كشلي، وأنا..**)... وكانت «حياة» دليلنا عبر درج طويل طويل.. «المهمّ أن يكون الغداء غداء بالفعل!» - «إن الله مع الصابرين» قالت - ووصلنا إلى أعلى درجة في الدرج.. ودخلنا شقّة اكتشفنا أنّها أعلى شقّة في البناية، على السطح، وأمامها «روف» واسع مفتوح على السماء الأوسع، ومشرف على قسم كبير من بيروت، وعلى البحر (حيث رأينا، بالعين المجرّدة، البواخر الحربيّة الاسرائيليّة).. يا لهذا الغداء الفظيع!.. ولكن، بدأت المخبّآت الأسطوريّة تظهر:

حبّة بندورة كاملة وكبيرة. حمراء ناصعة الاحمرار، ولايزال مكان العِرْق فيها أخضر، وبشرتها مصقولة ملساء ينعكس عليها بريق الشمس.. وانتقلت الحبّة/الكنز من يدٍ إلى يد: يا للملمس اللذيذ!.. ثمّ: برتقالتان متوسّطتان ولونهما برتقالي مظبوط! «فاكهة؟» شهقنا كلّنا معاً كأنّنا في جوقة أطفال.. ثمّ: عدّة أرغفة، طبيعيّة، ملفوفة بكيس نايلون، وصلت إلى مضيفتنا الكريمة، من «الشرقيّة» إلى «الغربيّة» عبر أسوار الحصار!.. معجزة!.. وبعد سلسلة مدائح موجّهة إلى «حياة»، جاءت الطبخة العرمرميّة: طنجرة فيها رز مطبوخ سخن.. وطنجرة ثانية فيها يخنة لوبية خضراء، وفي اليخنة قطع من اللحم الحقيقي.. لحم بكامل إهابه ودسامته.. ثمّ: إبريق زجاجي مليء بماء نظيف، وبارد.. فقد استطاعت حياة أن تحصل على عدّة قطع من الثلج من عند جيران يملكون مولّد كهرباء!.. كلّ السعادة التي أضاءت وجوهنا انتقلت إلى وجه «حياة» الذي لم أشهده فرِحاً إلى هذا الحدّ الباهر، لا قبل الوليمة العظيمة ولا بعدها...

وقرّرنا أن نمدّ المائدة على «الروف» المفتوح على السماء الواسعة.. وما إن أخذت حواسنا تستعيد لذائذ الطعام الطبيعي، حتّى جاءنا الهدير المقيت لطائرات اسرائيل الحربيّة.. وراحت تحوم فوق بيروت وفوق رؤوسنا.. (من دروس الأمان، والمقاومة: أنّ على غير المسلّحين والمقاتلين أن ينزلوا إلى الملاجئ قبيل الغارة وخلال القصف).. تطلّعنا في وجوه بعضنا بعضاً، وتطلّعنا إلى الطائرة المحوّمة المعربدة بما ينذر بأنّها سوف تقذف حممها فوق رؤوس البنايات التي نحن على سطح واحدة منها.. حاسري الرؤوس...

قلنا: فلنتابع ما جئنا لأجله.. وليكن ما يكون!..

● مع مخطوطة أبي زهير
تحت القصف وداخل الحصار

.. وخلال تنقّلاتي، من شقّة إلى شقّة، طوال أيّام الحصار، كان في رفقتي، وفي عهدتي، كيس من النيلون فيه مخطوطة جديدة، وعزيزة جدّاً، ووحيدة؟. فصار خوفي على الكيس أن يضيع، لا يقلّ أبداً عن خوفي على نفسي:

كانت القوات الاسرائيليّة قد وصلت إلى مشارف بيروت، عندما جاءني من يقول لي بأن أبو زهير (**نقولا شاوي**) يريد أن يراني لأمر ضروري.. ذهبتُ إليه. استقبلني بابتسامته الطيّبة الآسرة التي تضيء روحك مهما تراكم في روحك من رماد الحزن والغموض. قال إنّ الرفاق في قيادة الحزب يلحّون عليه بالسفر، في مهمّة، خارج البلاد.. هو لا يميل - الآن خاصّة - إلى السفر.. على كلّ حال، قال: «دعوتُك لأضع في عهدتك أمانة، أعرف أنّك ستحافظ عليها. من يدري، ربّما أسافر!. أنا لا أريد.. ولكن ربّما!.» - ثمّ دخل إلى مكتبه، وعاد وبيده كيس من النيلون بلونٍ أخضر زاهٍ، وبداخله، كما يبدو، رزمة من الأوراق بقياس «فولسكاب».

قال: «هذا ما أنهيت كتابته، حتّى الآن، من «**الذكريات**».. أخشى أن تضيع إذا سافرت، أو أن تضيع إذا بقيت.. يبدو أنّهم سيدمّرون كلّ ما يمكنهم أن يدمّروه من بيروت.. خذْ هذه الأوراق. صوّر عنها نسختين، واحدة تبقى معك، والثانية ضعها في مكان آخر، والنسخة الأصليّة هذه سلّمها لزهير.. أعرف أنّك أنت أكثر حرصاً على هذه الأوراق وعلى تنفيذ هذه المهمّة.. أنت تعرف كم تعبتُ في كتابتها.. وصلتُ فيها حتّى أحداث أواخر عام ١٩٣٢، ولكن، عندما أعود لمتابعة الكتابة، سوف أجهد لأنهي بأقصى السرعة هذه المهمّة، المتعبة والممتعة، التي يلحّ عليّ الرفاق أن أنجزها.. يجب الإسراع، فمن يدري!.»

شعرت بانقباض أليم، غامض، في أعماق الروح.

انطلقت بي السيّارة في طريق العودة. الشوارع شبه مقفرة. الشوارع تنتظر غارة جديدة. وأنا في السيّارة أحتضن الكيس الأخضر الزاهي. وفي الروح مزيج عجيب من الفرح والخوف والاعتزاز والقلق: ماذا لو سقطت قذيفة، واحترقت الذكريات؟

صفحات تحمل جزءاً ملحميّاً، جميلاً وعزيزاً، من تاريخ إنسان حبيب مدهش، تاريخ شعب وحزب ووطن - ماذا لو ضاعت هنا أو هناك؟. فنحن ننتقل من بيت إلى بيت.. والخطر يطارد كلّ الشوارع وكلّ البيوت!.. لهذا أخاف. أعترف أمام النّاس جميعاً بأنّني أخاف. الأوراق مثل الروح.. فلماذا هذا الامتحان العسير يا أبا زهير؟

هذا العبء الثقيل. هذا العبء الجميل. إنّه يرهقني!.

بدأتُ أسعى لسحب نسخة مصوّرة عن هذه الصفحات الثلاثمئة.. ففشلت، لألف سبب وسبب، فشلت!. أبسط

الأسباب أنَّ «فولتاجات» الطاقة الكهربائيّة لا تكفي!.. وأنَّ الكهرباء، تالياً، انقطعت نهائيّاً.

فالنسخة التي في عهدتي لهذه «الذكريات» هي، إذن، النسخة الوحيدة. وضياعها صار يعني لي، في تلك الظروف، أشبه بضياع فلذة من التاريخ وفلذة من المستقبل.

فصرتُ مسؤولاً ـ تحت القصف وداخل الحصار ـ عن ابنتيّ «لينا» و«تانيا»، وعن زوجتي.. وعن هذه «الذكريات».. وفي أواخر حزيران خفّ بعض العبء عنّي: إذْ استطعتُ تسفير العائلة خارج البلاد.. وبقي لي هذا العبء المرهق الجميل، الملفوف في كيس زاهي الاخضرار.. أنقله معي من بيت إلى بيت، حيث أظنّ المكان أكثر أماناً..

وفي ليل الحصار والترقّب، أخذت أقرأ الصفحات الغنية المشوّقة والجميلة. أحياناً أقرأ تحت نور «لوكس» يُضاء بالكاز، وفي الغالب على ضوء ثلاث شمعات، لا شمعة واحدة، حتّى أتمكّن من رؤية الحروف الدقيقة، المشدود بعضها إلى بعض، مثل مظاهرة جماهيريّة ضخمة في شارع مستطيل يضيق بالحشود المتراصّة.

وأخذتني «الذكريات» إلى عالمها المحتدم، الشاسع، الزاخر بالناس والأحداث والأفكار والشخصيات الواقعيّة/الروائيّة ذات الجموح الملحمي الحيّ.. ليس دقيقاً القول إنَّها ذكريات رجل سياسي. بل الصحيح أنَّها ذكريات كاتب أديب أيضاً، وباحث مدقّق، خاض طوال حياته الأمواج المتلاطمة للعمل السياسي، والنشاط الثوري، وظلّت أسبابه موصولة بعالم الثقافة، والقراءات في الأعمال الإبداعيّة، والكتابة بين حين وحين في هذا المجال..

واكتشفتُ أنَّ هذه «الذكريات» ليست نوعاً من الأحاديث «عن» تلك الأيّام.. بل هي سياقٌ من الكتابة تذهب بالقارئ إلى العالم الخاصّ لتلك الأيّام، إلى حيث تلمس النبض الحيّ لتلك المرحلة، بمختلف إيقاعاتها وتلاوينها: فأنت، عبر هذه الصفحات، لا ترى فقط الناس والأماكن والأشياء في تفاعلها وحركتها ومساراتها، بل تمتلئ بالنكهة الخاصّة لهذا كلّه، وبفرادة هذا الشخص أو ذاك، وفرادة الأمكنة، وفرادة الأحداث، التي تكتسب نموذجيّتها من فرادتها هذه بالذات.

أحببتُ كثيراً نسيج الكتابة وغنى الأجواء وتلاوينها في هذه «الذكريات».. فامتزج الخوف عليها بعشق التعلّق الفنيّ، بها.

.. وصار كيس النيلون ذو اللون الأخضر الزاهي، رفيق تنقّلاتي من بيت إلى بيت.. من منطقة اشتدّ فوقها الخطر إلى منطقة أظنّ أنَّها أقلّ تعرّضاً للقصف المجنون.

وذات يوم رهيب، كنّا في ملجأ ينحشر فيه حشد كثيف من سكّان البناية المذعورين. ساعات وساعات، تنهمر قذائف الجوّ والبرّ والبحر بدون انقطاع فوق بيروت (الغربيّة) كلّها. ولم تعد آذان الناس ترصد انفجارات القذائف، بل تلتقط أصوات الانهيارات.. والانهيارات تقع حولنا، وبالقرب منّا، وفي البناية التي نحن في أسفلها.

فجأة، اندفعتْ إلى داخل الملجأ فتاة تصرخ: «الصاروخ انفجر في شقّتنا في الطابق السابع. قبل دقيقتين فقط تركنا الشقّة ونزلنا إلى أسفل الدرج. لو بقينا لكان الصاروخ قد مزّقنا جميعاً»..

واندفعتُ أنا خارجاً من الملجأ راكضاً نحو الدرج. القصف والدخان ورائحة الموت في كلّ مكان. وأنا أندفع صاعداً الدرجات.. (كنتُ أشغل شقّة صديق في الطابق الخامس. وكيس النيلون الأخضر الزاهي في الخزانة، فوق..) ـ ماذا لو اقتحم صاروخ آخر شقّة الصديق في الطابق الخامس هذا؟.. الأوراق تحترق، ولون الكيس يصير إلى السواد، هذا إذا بقي الكيس وبقي رماد الأوراق!.. ولم أشعر إلاَّ وأنا عائد إلى الملجأ وبيدي الكيس كما كان، نابضاً زاهي الاخضرار.

* * *

عرفتُ، فيما بعد، أنَّ أبا زهير ظلّ في بيروت. لم يستجب لإلحاح الرفاق عليه أن يسافر.. وغرق في مهمّات وأعمال وأماكن صرفته عن الاتّصال بي طوال أيّام الحصار..

عندما أعدتُ الأوراق إليه، كاملة سالمة، تأمّل كيس النيلون الأخضر.. كانت مسكة الكيس مشرومة تكاد تنقطع!.. قال أبو زهير مبتسماً: ولو، كلّ هذه الأيّام، لم تجد كيساً آخر، مرتّباً أكثر، وابن ناس؟..

ثمَّ قال: أكّدت لي هذه الحرب، ضرورة أن أنصرف إلى العمل الجدّي أكثر، وأن أنجز الكتاب بأسرع ما يكون...

● حسين مروّة يرسم وجهي الباكي

نادرة جدّاً هي الحالات التي تجعلني أبكي.. حتّى أمام الكوارث والفجائع، أُصاب بغليان داخلي، بصمتٍ عميق لا يؤثّر على تصرّفاتي التي تظلّ طبيعيّة.. والحالات التي يتهدّج فيها صوتي، وتسيل من عينيَّ بعض الدموع، هي الحالات العاطفيّة الشخصيّة جدّاً، ومنها، مثلاً، فقدان إنسان صديق أو حبيب، تغلغل وجوده في تكويني الإنساني. في هذا الحالات يتجاوز بكائي الكيان الداخلي، فتنساب الدموع وحدها، وكلّما حاولت أن أتكلّم، يتزايد انسياب الدموع.

يوم خروج فصائل المقاومة الفسلطينيّة من بيروت، قصدت شارع مار الياس. آلاف المقاتلين في الشاحنات التي تسير ببطء باتّجاه المرفأ.. آلاف الناس من سكّان بيروت على السطوح وفي النوافذ والشرفات وعلى جانبي الطريق.. يلوّحون بالأيدي، وبالقلوب.. فالوجوه البيروتيّة تبكي. كلّ الوجوه التي رأيتها كانت تبكي..

قبيل قرار الخروج، كان هؤلاء المقاتلون يدافعون عن المدينة الرائعة وعن الثورة الفلسطينيّة.. والمدينة، معهم، صمدت طوال تسعين يوماً من الهول والحصار وحمم الجحيم، وقاومت هذا كلّه.. لم أستطع أن أتحمّل، فانطلقتُ إلى حيث كان أبو نزار، وفي رأسي جحيم من الهواجس والتساؤلات والأسى.. ودخلتُ حيث يجلس أبو نزار إلى الكتابة.. فراح يتأمّل وجهي..

ـ «مرّة واحدة رأيت محمد دكروب يبكي.. (هكذا كتب أبو نزار فيما بعد).. جاءني محمد دكروب، ذات صباح، ولم يبادرني بتحيّتنا «التقليديّة» التي نتبادلها ـ هو وأنا ـ عادةً في حالاتنا الطبيعيّة.. صوته ينشج، عيناه تبكيان..

كان ذلك أوّل صباح تودّع فيه بيروت قوافل المقاتلين الفلسطينيّين الراحلين، بقرار من قيادتهم السياسيّة، بعد حرب الحصار الهمجي الذي عجز عن إركاع بيروت... أيّ كان ذلك فاتحة الوداع التاريخي الذي كشف هذ المرّة، جوهر ما في الأعماق بكلّ صفائه ونقائه، أي كشف عمق المكان الذي يضع فيه شعبنا اللبناني قضيّة الثورة الفلسطينيّة من مشاعره الوطنيّة والقوميّة ومن وعيه السياسي ومن نضجه الثوري.

قال محمد: أعرفت ما يجري في الشارع البيروتي اليوم؟.

قلت: عرفت دون أن أرى... ولا أستطيع أن أرى..

وبكيت مع محمد دكروب.. لكن، كنت في لحظة دخوله قد بدأت أكتب مقالي اليومي لـ «النداء» في موضوع الوداع التاريخي نفسه.» ـ (**الطريق**: حزيران ١٩٨٩).

● بيروت المستباحة.. مشاهد الحقد والأسى والغضب

عبر خدعة نُسجت دولياً عربياً محلياً، بدأت عمليات «تنظيف» بيروت (الغربيّة).. آليات شركة «أوجيه لبنان» ترفع الأنقاض. تزيل النفايات. تطيح بأكياس الرمل، والتحصينات، والمتاريس. تجرف السواتر الترابيّة. تفتح مداخل بيروت (الغربيّة). تمهّد الشوارع..

تتكاثر المداهمات في بيروت.. تتكاثر الاعتقالات، ومصادرات الأسلحة، ويتخفّى المقاتلون والمناضلون..

بيروت.. مدينة مفتوحة!..

وتحت ستار حادث اغتيال «الرئيس المنتخَب» بشير الجميل، بدأت عمليّات التقتيل في المخيّمات الفسلطينيّة، وعمليّات اقتحام بيروت التي نظّفوها.. ومهّدوا الطريق!..

كنت في بيت صديق عزيز، في أحد متفرّعات شارع مار الياس.

منذ الصباح الباكر بدأ هدير المجنزرات، هديرٌ صاخب متداخل مع هدير قذائف مدافع الدبّابات.. بدأوا باقتحام شارع مار الياس في أرتال ممتدّة من المرفأ، مروراً بمنطقة الفنادق، صعوداً إلى شارعنا هذا.. كانوا يدمّرون كلّ شيء، انتقاماً من هذه البيروت وخوفاً منها. وقد اصطدموا بالفعل بمقاومة هنا ومناوشة هناك. احترق عدد من الدبّابات. ولكنّهم كانوا يتقدّمون، ببطء وحذر وخوف، ولكنّهم يتقدّمون...

وتمّ لهم احتلال شارع مار الياس.

هدير المجنزرات أخذ يبتعد، وكذلك القصف.

وخرج بعض الناس إلى الشوارع يرون إلى «تفاصيل» الدمار الجديد.. (بعد كلّ غارة، طوال أيّام الحصار، كان الناس يخرجون إلى الشوارع، كلّهم تقريباً يخرجون إلى الشوارع، يتطلّعون إلى ما جرى في بيروتهم، ويأخذون في تنظيف الشوارع من حطام الزجاج.. يهنّئ بعضهم بعضاً بالسلامة، يتعانقون..). اليوم، بعد اقتحام بيروت، الناس قليلون في الشوارع. لا أحد يهنّئ أحداً بالسلامة. صمتٌ ثقيل، مرهق. الوجوه معتمة. الوجوه شاحبة. الوجوه جامدة. كأن لم يبق شيء هناك، داخل الروح. الحالة أعمق من اليأس. أوجع من القهر. الدمار في الشوارع. الدمار في أعماق الروح. كأن بيروت تعيش موتها.

سرتُ في شارع مار الياس: السيّارات، على الجانبين، محطّمة كلّها. كلّها. لم أرَ، على طول الشارع، ولا سيّارة واحدة سليمة، من تلك السيّارات التي يوقفها أصحابها عادة على جانبي الطريق.. مئات السيّارات محروقة ومعجونة. وأبواب المحلّات، كلّها، مصابة أو مدمّرة.. واللون الأسود هو السائد، على الجدران، على أرض الشارع، على حطام السيّارات، وفي أرواح البشر.

.. ورأيتهم أمامي، وجهاً لوجه، لأوّل مرّة في حياتي، فدخلتُ في الأسى..

جنود الغزاة مصفّحين: يلبسون ثياباً ثقيلة، ويحملون أسلحة

ثقيلة، ويعتمرون خوذات ثقيلة تغطّي الرأس كلّه والرقبة والأذنين وأسفل الذقن.. فلا يظهر سوى الجزء الأمامي من الوجه..

كانوا هناك، فوق دبّاباتهم وحولها. لا أريد أن أتأمّل وجوههم.

أرتعد لفكرة أن أنظر إلى وجه واحدٍ منهم، فأرى عينيه. فقد يصدف أن يكون في عيني هذا الذي أُرسل نظري إليه، بعض شعاع إنساني. قد يكون هو نفسه مختلفاً، أو غير مقتنع بالحرب. لا أريد أن أتعرّض لمثل هذه الصدفة. أريد للمحتلّ، لجندي الاحتلال، أن يظلّ في ذهني نموذجاً ورمزاً للاحتلال، «للقدم الهمجيّة»، للنازيّة الجديدة، للوحش الآتي من كهوف الأساطير والخرافات مدجّجاً بأحدث وسائل التكنولوجيا، وأشدّ الأسلحة العصريّة تدميراً.

تأمّلت الناس. رأيت أنّهم متواطئون معي. الجميع متواطئ مع الجميع. لا أحد يتحدّث مع أيّ واحدٍ من جنود الاحتلال هؤلاء. رأيت اثنين أو ثلاثة يسألون هذا الاسرائيلي أو ذاك، ربّما عن وجهة السير من هنا أم هناك، بعد احتلال الشارع. حتّى الباعة وأصحاب المحلّات، كانوا يتظاهرون بأنّهم لم يسمعوا الجنديّ وهو يسأل عن سعر شيء ما، أو أنّهم لم يفهموا عليه، أو هم يبيعونه الشيء، والوجه كامد، خالٍ من أيّ تعبير.

لم أعد أطيق. شيءٌ ما في الأعماق ينكمش، يغفو، كأنّ الموت قد سكن هناك. أمّا «التفاؤل التاريخي» فلا أدري أين كان في تلك اللحظات. كان موجوداً، ربّما، في الوعي، في المنطق، ولكنّه متوارٍ خلف ضباب كثيف، أسود.

قصدت مهدي عامل.. مهدي متفائل دائماً.. ودائماً هو القابض على الحقيقة، وهو الرائي لحركة التاريخ المتصاعدة، وهو الديالكتيكي المدهش الذي قد يُقنعك بأنّ الهزيمة هي هي روح النصر، أو ـ إذا تساهل معك ـ يريك في الهزيمة مظاهر لبوادر النصر...

حجم «التفاؤل التاريخي» عندي لا يقلّ كثيراً عن حجمه عند مهدي. ولكن التدمير والسواد والحزن الهائل يملأ الروح، ويسدل أمام العين والوعي ركاماً من الضباب الكثيف.

ـ فكيف حال مهدي؟

وجهٌ كامد. جسمه مهدود. الحزن في عينيه وفي صوته. وهل سمعتُ صوته يا ترى ذلك اليوم؟.. (عادة، لا نتوقّف عن الحديث، والحوار، فالصراخ..).. لا أذكر أنّنا تحادثنا ذلك اليوم، فقط أخذنا نقرأ الجريدة، ولم نستمع إلى الإذاعات.. جلسنا طويلاً. كان الصمت قاتلاً، فخرجت.

***

الأيّام تمرّ ثقيلة موحشة، والأسى لايزال يغمر الروح.. خمسة أيّام نهارها ليل.. والليل فوق بيروت. الليل في الشوارع وداخل البيوت، الليل يسري في خلايا الجسد. الليل/الحزن يطلّ من العيون.

.. وفي ليلة الاثنين/الثلاثاء ٢٠/٢١ أيلول ١٩٨٢ (لا أنسى أبداً هذا التاريخ..) كنتُ في منزل ذلك الصديق العزيز، في آخر شارع مار الياس. وكان معنا رفيق آخر قيادي.. (كلّ ليلة عليه أن ينام في بيتٍ غير بيت الأمس) نسأله، ويجيب. نحاول أن نفهم أكثر أسرار تلك الأيّام وتقلّباتها..

.. وكلّ شيء هادئ في.. بيروت (الغربيّة)..

فجأة.. انطلقت أصوات انفجارات وطلقات رشّاشات سريعة هوجاء.. غير بعيدٍ جدّاً عن المكان الذي نحن فيه.. ثمّ.. صَمَتَ كل شيء..

على وجه الرفيق الزائر ارتسمت ابتسامة.. وقال بهدوء:

ـ بدأ الدولاب يدور...

وذهب إلى السرير المُعدّ له.. ونام بعمق.

في الصباح، نشرت بعض الصحف بياناً موجزاً جدّاً، متواضعاً جدّاً، لا لهجة خطابيّة فيه، ولا ادّعاء. حتّى أن بعض الصحف نشره في زوايا متواضعة أيضاً:

«ليل الاثنين/الثلاثاء، هاجمت مجموعة من **قوات المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة** جنود الاحتلال الاسرائيلي في منطقة الصنائع، وذلك بالقنابل اليدويّة، فجرحت وقتلت ما لا يقلّ عن ٨ جنود للعدو. وهرعت سيّارات الاسعاف إلى مكان الحادث، فيما عادت المجموعة إلى أماكنها سالمة.

إنّ هذه العمليّة هي جزء من نضال كلّ المقاتلين الوطنيّين من أجل طرد الاحتلال الاسرائيلي عن تراب الوطن».

نقطة ضوء.

إذن، الدولاب بدأ يدور.. وبدأ يتغيّر مجرى الأحداث، ومسار المقاومة..

على أنّ هذا حديث طويل آخر.. □